كيف اختار المنصور موقع بغداد

دالت دولة الأمويين وقامت على أنقاضها دولة بني العباس تسندها كواهل الفرس وتؤيدها سيوفهم ، وكان لابد للدولة الجديدة من عاصمة جديدة ، اذ يرى المتتبع لتاريخ العرب ان تغيير العاصمة لابد منه عندما تتولى الحكم اسرة جديدة ، ففي بدء الاسلام هاجر النبي (ص) من مكة واتخذ يثرب مقراً له فانتقل بذلك المركز السياسي لجزيرة العرب من مكة المدينة التجارية القديمة الى يثرب التي سميت بعد مدينة الرسول ، والتي أصبحت عاصمة الاسلام ومركز الحكومة ، وبقيت كذلك في حياة النبي (ص) والخلفاء الراشدين الثلاثة من بعده ابي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ؛ فلما آلت الخلافة الى علي عليه السلام اتخذ الكوفة مقراً ، وحدث النزاع بينه وبين معاوية منافسه الذي مرت عليه عشرون سنة وهو أمير الشام . قد وطد فيها امره واسكن اقرباءه واتباعهم ، حتى اذا ما انتهى هذا النزاع بشهادة الامام وتنازل الحسن اصبحت دمشق حاضرة الاسلام ، وكان موقعها مناسبا لان تكون عاصمة حكومة الامويين العربية ، فهي واقعة وسط إقليم خصب ، وهي قريبة من مكة والمدينة مركزي القوة الدينية كما أنها تقع على تخوم الصحراء العربية التي يتخذ الخلفاء من سكانها جنوداً بها جنون بلاد الروم القريبة من دمشق ايضا ، ولم يكن يقلل من أهمية موقع دمشق انها لم تكن واقعة على نهر صالح للملاحة ، لأن تجارة المسلمين كانت حينذاك بسيطة تتبع طرق القوافل وتحمل على الابل

واذا ما صلحت دمشق لان تكون حاضرة الامويين ، فانها لا تصلح أن تكون حاضرة بني العباس ، فهي مأهولة بأتباع الأمويين ومناصريهم وهي بعيدة عن بلاد فارس ، مصدر قوة العباسيين ودعامة ملكهم ، وفضلا عن ذلك فقد أصبحت مهددة بالروم الذين اغتنموا فرصة ضعف الأمويين ، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة ، كي يثاروا لاندحارهم القديم ، فالعاصمة الجديدة إذن يجب ان تتجه نحو الشرق قريبة من بلاد فارس ، ثم إن التبسط التجاري يقضي ان تكون على ماء يصلها بالبحر ، ومن هذا تعين ان يكون موقعها إما على الفرات وإما على دجلة ، حيث لم يتردد العباسيون ان يجعلوها هناك .

لما انتهى السفاح من حروبه ومذابحه أتى الهاشمية بجوار الانبار المدينة الفارسية القديمة ، واتخذها مقراً له وتقع هذه الهاشمية على ضفة الفرات الشرقية ، حيث يتفرع منه النهر الكبير الذي عرف فيما بعد باسم نهر عيسى ؛ وفيها توفي السفاح سنة ١٣٦ هجرية . وبعد قليل من تبوء المنصور كرسي الخلافة شرع في بناء مقر له سمي بنفس الاسم ، وتقع هذه الهاشمية الثانية بين الكوفة والحيرة على الجانب الغربي من الفرات ، في محل لا يبعد كثيراً عن البطائح ، مصب الفرات في القرن العاشر الميلادي وتقول رواية أخرى انها كانت قرب مدينة ابن هبيرة القريبة من الكوفة . ومدينة ابن هبيرة هذه هي غير قصر ابن هبيرة . لم يكن موقع الهاشمية الثانية مناسباً ليكون عاصمة بني العباس لقربها من الكوفة مركز شيعة العلويين ولأن القبائل التي تقطنها كانت لا تفتأ تثور وتشاغب ، وقد تركها المنصور بعد ثورة الراوندية الذين تظاهروا بتقديسه وكادوا يفتكون به .

وإذا ما انتقلت العاصمة الى العراق فمن الواضح ان فائدة بقعة على دجلة خير منها على الفرات لانها تكون وسط إقليم خصب فقد كانت مياه الفرات تسقي الارض التي بينه وبين دجلة كما كانت مياه هذا الاخير تروي الارض الواقعة شرقيه ، وفضلا عن ذلك فان القسم الأسفل من دجلة كان أصلح للملاحة من الفرات .

وقد قام المنصور برحلات عدة للتفتيش على موقع لائق بالعاصمة فسافر من حرجايا الى الموصل ، متبعاً شاطئ دجلة ووقع اختياره أولا على موقع قرب باريما جنوب الموصل عند الموقع الذي يعرف اليوم باسم الفتحة ، حيث يقطع نهر دجلة جبال حمرين ولكنه تركه حين علم بغلاء الميرة وقلتها فيه وأخيرا اختار قرية بغداد الفارسية الواقعة ، على ضفة دجلة الغربية ، شمال مصب نهر الصراة تماما وأسس فيها عاصمته الجديدة سنة ١٤٥ للهجرة (٧٦٢ للميلاد) .

ويظهر من الاستكشافات التي قام بها السير هنري رولنصن سنة ١٨٤٨ للميلاد انه قد كان في هذا المحل مدينة من المدن القديمة جداً فقد وجد آجراً مكتوبا عليه سم بختنصر ولقبه ، كما وجد في خرائط الآشوريين الجغرافية اسما لمدينة يقرب من اسم بغداد .

وقد كانت تقام في قرية بغداد الفارسية أثناء حكم الساسانيين سوق شهرية اشتهرت كثيراً في صدر الاسلام ، إذ هاجمها المسلمون سنة ١٣ للهجرة وغنموا كثيراً من الذهب والفضة ثم لم يعد يظهر اسم بغداد في التاريخ حتى سنة ١٤٥ للهجرة حين أخذ المنصور يفتش عن موقع لعاصمته الجديدة ، وقد كان في هذا الموقع لذلك الحين عدد من الأديرة وخاصة أديرة الرهبان النسطوريين ، ومنهم عرف المنصور خلو هذا المحل من البعوض الذي يكثر في المحلات الأخرى من دجلة ، وأن لياليه بهيجة باردة حتى في الصيف وكانت هذه المميزات بلا

شك مما أغرى المنصور على اختيار هذا المكان موقعا لعاصمته.

وقد أطنب مؤرخو العرب وجغرافيوهم في الكلام عن فوائد موقع بغداد المتعددة ، فيذكر لنا المقدسي مثلا أن الخليفة اتصح بقول ساكني هذا المحل ، ولخص في الأسطر التالية الكلام الذي خوطب به المنصور ، الذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج (مقاطعات) في الجانب الغربي طسوجان ، وهما قطربل وبادرايا ، وفي الجانب الشرقي طسوجان ، وهما نهربوق وكلواذى فأنت تكون بين نخيل وقرب الماء. فان أجدب طسوج وتأخرت عمارته ، كان في الطسوج الآخر العمارات ، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات ، وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من أرمنية وما اتصل بها في نامرا حتى تصل الى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة ، وأنت بين أنهار لا يصل اليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فاذا قطعت الجسر وخربت القناطر لم يصل إليك عدوك ، وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل ،

إن التبصر الذي أظهره الخليفة المنصور في اختيار موقع بغداد يظهر جليا في تاريخ بغداد الأخير ، فقد توسعت هذه المدينة توسعا كبيراً حتى كانت المدينة الثانية بعد القسطنطينية في العصور الوسطى ولم يكن لها نظير في جلالها وعمرانها بين مدن آسيا الغربية ؛ ولم تستطع الحروب والحصارات وانتقال الخلافة منها الى سامراء ، وحتى تخريب المغول لها ، كل هذه لم تستطع أن تحط من مركز بغداد وكونها عاصمة ما بين النهرين ، فاتخذها الاتراك مقراً لهم ، والآن بعد أن مر عليها أحد عشر قرنا ، أصبحت عاصمة الحكومة العراقية .

سليم محمود الاعظمي

من صور الحياة

صديق . . .

الى تلك النفس الظلوم

قلبي الساعة مجال لصراع عنيف بين عاطفة من الحب والوفاء ، وعاصفة من شيء يشبه المقت وأنا بينهما حائر مضطرب :

لي صديق لا يزال حيا ، ومع ذلك فانا أميل الى الاعتقاد بانه مات ، لأني كفنته في أثواب الاهمال ، ودفنته في زوايا النسيان . ولأن إباءه قضى ، ووفاءه مضى ، وليس بعد فقد الاباء والوفاء معنى للحياة

إذن مات صديقي النفسي لي على الأقل . ولكنه أورثني فيما خلف لي من تركته المثقلة بالهم ، جرحا لا يزال الدم يقطر منها ولكم وددت لو أن الايام عفت حول اسمه ورسمه ، سجا من النسيان لا ينفذ إليها شعاع من الذكرى ، وطالما جاهدت نفسي في أن أجعل بيني وبينه من التناسي أستارا صفيقة ، وأسوارا منيعة ، فلا يسعى إلي ولا أصل اليه ، فلم أوفق ، ولا تزال ذكراه تلم بي وتحوم حولي ، ولا أزال أتردد على رسائله وصوره كما يتردد العابد إلى محرابه ولقد يتفق لي أحيانا ان أصادف هذا الصديق الميت الحي ، فأقف أمامه ، مضطرب العاطفة إنه يشبه صديقي في جماع شكله ، إلا ان صديقي كان صفي النفس وفي القلب نقي الضمير ، وليس هذا الانسان من تلك الصفات في قليل ولا كثير ! لقد اتممت اليوم قراءة الصفحة الثانية بعد العشرين من كتاب حياتي ، وعاشرت الناس بقدر ما اتفق لي أخيارا واشرارا فلم أر شيئا أوقع في النفس من خيانة الصديق ، وكنت ولا أزال أحتقر نوعا من الصحاب يصادقون شهرا ويناقضون دهرا ، ثم يتقلصون أخيرا عن الصاحب فاذا هو عندهم منكر الطلعة كان لم يكن بينهما من أسباب الود القديم ما يربط أحدهما بالآخر . . . وصديقي من صميم هذا النوع . قطعت معه في طريق الحياة أشواطا لم يقف الأمر خلالها بيننا على ما يكون بين الصديق وصاحبه من المجاملة ، بل نشأ بيننا لون من الحب العميق الوثيق لم تعبث به الاغراض ، ولم تفسده الأعراض فأخلصت له كما يجب ان يخلص الصاحب ، لا أبتغي على ذلك جزاء ولا شكورا إلا أن يأخذ نفسه بشيء من الاخلاص ، فأعطاني على ذلك الموثق وأقسم جهد أيمانه ومضى يزعم أن شيئا في الوجود لا يستطيع العبث